أثر منهج الشيخ ابن عثيمين في التأليف والتدريس على فهم الفقه وأصوله للمبتدئين

إعداد

د. عمار بن عبدالله ناصح علوان

أستاذ مواد الأصول ـ ومقاصد التشريع

لمرحلتي البكالريوس والدراسات العليا

جامعـة ملايـا «ماليزيـا»

ورقة عمل مقدمة لـ :

ندوة جهود الشيخ محمد العثيمين العلمية



2256 Blank

بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيد

تعاني بعض مناهج تعليم العلوم الشرعية عدم وجود كتب مناسبة للدراسين، بخاصة المبتدأين منهم، وهذا ما أشار إليه أحد الباحثين فقال:»

معلوم أن العملية التعليمية ترتكز على **ثلاثة أسس وقواعد هي**:

١. المعلم.

٢. المتعلم.

٣. الكتاب.

فالكتاب هو المحور الثالث الأساس في العملية التعليمية، ولابد أن يكون مناسباً للدارس لغوياً وثقافياً ونفسياً، وإلا أعاق العملية التعليمية وبدد مجهودات المعلم والمتعلم.

ومما يحمد له فهناك مجهودات كبيرة بذلت، وكتب ومؤلفات برزت في عدد من المعاهد في جامعات المملكة المختلفة، سيما جامعة أم القرى والملك سعود، والإمام محمد بن سعود، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ولكن لا تزال هذه الكتب والمذكرات تحتاج إلى إعادة نظر، وإلى تنقيح، سواء كان ذلك في مجال تعليم اللغة أو في مجال العلوم الشرعية[١].

في هذه الورقة سوف أدلل على أن كتاب الشيخ محمد بن عثمين ~ «الأصول

(١) من مقالة أهم العوائق والصعاب التي تواجه معلمي العلوم الشرعية للمبتدئين الناطقين بغير العربية للأمين الحاج محمد ينظر الموقع: www.islamadvice.com .

من علم الأصول» هو أنسب الكتب لأن يكون العمدة بل المتن ـ أيضاً ـ في علم أصول الفقه للمبتدأين في علم أصول الفقه.

منهج الشيخ ابن عثمين في التأليف كتاب «الأصول من علم الأصول نموذجاً».

شمولية المنهج مع إيجاز العبارة وجلاء المعنى:

قد يتبادر عند البعض أن تدريس مواد العلوم الشرعية للمبتدأين يعني اختصار كثير من المباحث التي قد يجد فيها الطالب صعوبة في فهمها. وهذا المنهج الذي قد يتخذه بعض المدرسين للعلوم الشرعية في تدريسهم لطلبتهم يبخس حق طلاب العلم المبتدئن من تمام العلم بالمادة وبالتالي يفقدهم الإلمام التام بالمادة فلا يمكن للطالب أن يتفوق في المادة إذا لم يحط بجميع مواد المادة المقرر منذ تأسيسهم فالذي أراه وهو من منهج الشيخ العثمين ~ في كتابه «الأصول من علم الأصول» ألا يفوت على الطالب أي مبحث من المباحث التي لها تعلق بعلم الأصول حتى ولو أخذ الطالب منه الوجيز اليسير فأرى أن قليل يدرك خير من جميع يحذف.

من هذا المنطلق نجد الشيخ ~ قد أدرج فصلا موجزا من في كتابه، الأصول من علم الأصول، «سماه باب العلم» سوف أورد هذا الفصل اليسير بأكمله لكي ندلل منه على منهجية الشيخ المبدعة في حسن الاختيار والإبداع. قال الشيخ ~ «تعريفه: العلم: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكاً جازماً؛ كإدراك أن الكل أكبر من الجزء، وأن النية شرط في العبادة.

فخرج بقولنا: «إدراك الشيء»؛ عدم الإدراك بالكلية ويسمّى «الجهل البسيط»، مثل أن يُسأل: متى كانت غزوة بدر؟ فيقول: لا أدري.

وخرج بقولنا: «على ما هو عليه»؛ إدراكه على وجه يخالف ما هو عليه، ويسمّى «الجهل المركب»، مثل أن يُسأل: متى كانت غزوة بدر؟ فيقول: في السنة الثالثة من الهجرة.

وخرج بقولنا: «إدراكاً جازماً»؛ إدراك الشيء إدراكاً غير جازم، بحيث يحتمل عنده أن يكون على غير الوجه الذي أدركه، فلا يسمى ذلك علماً. ثم إن ترجح عنده أحد الاحتمالين فالراجح ظن والمرجوح وَهم، وإن تساوى الأمران فهو شك.

وبهذا تبيّن أن تعلق الإدراك بالأشياء **كالآتي**:

١ ـ علم؛ وهو إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكاً جازماً.

٢ ـ جهل بسيط؛ وهو عدم الإدراك بالكلية.

٣ ـ جهل مركب؛ وهو إدراك الشيء على وجه يخالف ما هو عليه.

٤ ـ ظن، وهو إدراك الشيء مع احتمال ضد مرجوح.

٥ ـ وهم، وهو إدراك الشيء مع احتمال ضدٍّ راجح.

٦ ـ شك، وهو إدراك الشيء مع احتمال ضدٍّ مساو.

أقسام العلم:

ينقسم العلم إلى قسمين: ضروري ونظري.

١ ـ فالضروري: ما يكون إدراك المعلوم فيه ضروريًّا، بحيث يضطر إليه من غير نظر ولا استدلال؛ كالعلم بأن الكل أكبر من الجزء، وأن النار حارة، وأن محمداً رسول الله.

٢ ـ والنظري: ما يحتاج إلى نظر واستدلال؛ كالعلم بوجوب النية في الصلاة»[1].

فالنص السابق نص يسير ولكن يحمل الكثير من دلالات إبداعية في فن توصيل المعلومة لطلبة العلم بوضوح فريد وتصرف بالمصطلح المنطقي بضرب الأمثلة الشرعية مع الأمثلة العقلية لتستقر المعلومة في ذهن طالب العلم لأن المقدمة المنطقية التي أدرجت مع علم أصول كانت الغاية من إدارجها عون طالب العلم

(١) صفحة ١٥ـ١٦ الكتاب من نشر دار الجوزي طبعة عام ١٤٢٦ هـ.

الشرعي على ضبط الفهم للنص الشرعي وليس المقصود منها إدخال علم في علم وإلا سوف يؤدي إلى تشتت ذهن الطالب وعدم إتقانه لواحد منهما في وقت واحد، كما قال صاحب المنهجية الأولى في تدريس الفقه المقارن، ابن رشد[١].

فلحظ أخي الكريم استعمال الشيخ ~ في تمثيله للضروري بقوله «كالعلم بأن الكل أكبر من الجزء، وأن النار حارة، وأن محمداً رسول الله» كيف أن الشيخ ~ شفّع الأمثلة العقلية بالأمثلة الشرعية بأن محمدا ﷺ رسول الله. وانظر ـ أيضاً ـ كيف مثل بالجهل المركب والجهل البسيط من مفردات الثقافة الإسلامية المعلومة لدى كل طالب في العلوم الشرعية فلو اقتصر الشيخ على الأمثلة العقلية لما استوعب الطالب وتشتت ذهن الطالب لفهم الأمثلة العقلية المعقدة ولم يستفد منها في فهم منهج علم أصول الفقه .

والحظ ـ أيضاً ـ إبداع التصنيف من الشيخ ~ في إدراج باب العلم فهو لم يدرجه في الفصل الأول كما عمل المصنفون الأوائل في علم الأصول ـ مثل الغزالي ـ وأيضاً لم يطلق عليه مسمى المقدمة المنطقية وهذا في غاية الحكمة منه ~ لأنه لو أدرجه في الفصل الأول وسماه المقدمة المنطقية لنفر منه طالب العلم أولا من أجل التسمية التي قد يستنكفها بعض طلبة العلم ولنفر ـ أيضاً ـ من صعوبة الفصل.

وهناك حكمة تعليمية أخرى أتوخاها من تأخير الشيخ للفصل أنه لو قدم هذا الفصل وجعله في مقدمة الكتاب لرفع من قدر المقدمة المنطقة وأكد مقولة الإمام الغزالي في وجوب إحاطة طالب العلم بالمنطق وأن من لم يحط به لا يثق بعلومه أصلا[٢]. فالشيخ ~ قد أخر واقتصر على ما تمس إليه حاجة طالب العلم المبتدأ

(١) ينظر الضروري في أصول الفقه أو مختصر المستصفى لأبي الوليد الوليد محمد بن رشد الحفيد صفحة ٣٨. تقديم وتحقيق : جمال الدين العلوي «الطبعة الأولى ١٩٩٤م، طباعة دار الغرب الإسلامي، بيروت.

(٢) ينظر: فهارس كتاب د. عبدالكريم زيدان» الوجيز في أصول الفقه " الطبعة السادسة دار قرطبة.

في علم أصول الفقه.وهذا المنهج نادر ما نجده عند علماء الأصوليين السابقين أو حتى المعاصرين.

فمسلك ـ بعض المؤلفين المعاصرين في مؤلفاتهم لطلبة العلوم الشرعية مثل الكتاب الشهير «الوجيز في أصول الفقه» لعبدالكريم زيدان. الذي ابتدأ كتابه بمباحث الحكم وألغى المقدمة المنطقية البتة في كتاب الوجيز ولم يعقد لها أية فصل.

وما سبق عرضه من بيان لخصائص منهجية الشيخ مثل الشمولية ووضوح العبارة.. لم يكن أمراً مقتصراً على مفهوم التحليل، فكم سرورت حين تأكد تحليلي في منهجية الشيخ بالمنطوق من كلام الشيخ نفسه ـ ~ وجزاه فسيح جنانه ـ فقد قال في مقدمة كتابه الشرح الممتع على زاد المستقنع «ولما كان الشرح بالتقرير لا يساوي الشرح بالتحرير؛ من حيث انتقاء الألفاظ؛ وتحرير العبارة؛ واستيعاب الموضوع؛ تَبيَّن أنَّ من الضروري إعادة النظر في الكتاب، وتهذيبه وترتيبه. وقد تمَّ ذلك فعلاً ـ ولله الحمد ـ؛ فحذفنا ما لا يُحتاج إليه، وزدنا ما تدعو الحاجة إليه، وأبقينا الباقي على ما كان عليه[1].

فإذا هناك فرق في المنهج عند الشيخ العثمين بين التأليف والشرح في الدروس. فالتأليف لابد فيه من انتقاء الألفاظ وتحرير العبارة واستيعاب الموضوع ـ كما سيتضح أكثر في النموذج الثاني ـ.

«**الأحكام الوضعية**: ما وضعه الشارع من أمارات، لثبوت أو انتفاء، أو نفوذ، أو إلغاء.

ومنها: الصحة والفساد.

١ ـ فالصحيح **لغة**: السليم من المرض.

(١) ينظر مقدمة الكتاب الناشر دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ.

واصطلاحاً: ما ترتبت آثار فعله عليه عبادةً كان أم عقداً.

فالصحيح من العبادات: ما برئت به الذمة، وسقط به الطلب.

والصحيح من العقود: ما ترتبت آثاره على وجوده؛ كترتب الملك على عقد البيع ـ مثلاً ـ.

ولا يكون الشيء صحيحاً إلا بتمام شروطه وانتفاء موانعه.

مثال ذلك في العبادات: أن يأتي بالصلاة في وقتها تامة شروطها وأركانها وواجباتها.

ومثال ذلك في العقود: أن يعقد بيعاً تامة شروطه المعروفة مع انتفاء موانعه.

فإن فُقِد شرطٌ من الشروط، أو وُجِد مانع من الموانع امتنعت الصحة.

مثال **فَقْد الشرط في العبادة**: أن يصلي بلا طهارة.

ومثال **فقد الشرط في العقد**: أن يبيع ما لا يملك.

ومثال **وجود المانع في العبادة**: أن يتطوع بنفل مطلق في وقت النهي.

ومثال **وجود المانع في العقد**: أن يبيع من تلزمه الجمعة شيئاً، بعد ندائها الثاني على وجه لا يباح.

الفاسد لغة: الذاهب ضياعاً وخسراً.

واصطلاحاً: ما لا تترتب آثار فعله عليه عبادةً كان أم عقداً.

فالفاسد من العبادات: ما لا تبرأ به الذمة، ولا يسقط به الطلب؛ كالصلاة قبل وقتها.

والفاسد من العقود: ما لا تترتب آثاره عليه؛ كبيع المجهول.

وكل فاسد من العبادات والعقود والشروط فإنه محرّم؛ لأن ذلك مِنْ تعدِّي حدود الله، واتخاذِ آياته هزؤاً، ولأن النبي ﷺ أنكر على من اشترطوا شروطاً ليست في كتاب الله. والفاسد والباطل بمعنى واحد إلا في موضعين:

الأول: في الإحرام؛ فرّقوا بينهما بأن الفاسد ما وطئ فيه المُحرِمِ قبل التحلل

الأول، والباطل ما ارتد فيه عن الإسلام.

الثاني: في النكاح؛ فرقوا بينهما بأن الفاسد ما اختلف العلماء في فساده كالنكاح بلا ولي، والباطل ما أجمعوا على بطلانه كنكاح المعتدة[١].

انظر معي ـ سدد الله بصيرتك ـ كيف استوعب الشيخ ~ مبحث الصحة والبطلان في أقل من صحفتين مع ضرب الأمثلة العملية واستثناء التطبيقات المخالفة في الفروع الفقهية بعبارات رشيقة لا لبس فيها ولا غموض ولاالتفات بل المعنى مصمم للعبارة فلا هو فضفاض ليشغل ذهن القارئ في معاني أخرى ولاضيقا ليمنع المعنى المراد له. فالكتاب ـ بحق ـ يصلح أن يكون متنا لعلم أصول الفقه ـ سواء للناطقين باللغة العربية أو لغير الناطقين بها لأن قياس الأولى نتاجه: إذا كان متن أصول الفقه عباراته سهلة ومستوعبة للناطقين بالعربية فمن الأولى أن يكون كذلك لغير الناطقين بها والعكس هو صحيح. بل أقول: إن الحاجة لأن يكون كتاب الشيخ العثمين «الأصول من علم الأصول» متنا لعلم أصول الفقه للمبتدأين أشد لأن علم أصول الفقه من أولى العلوم التي يجب على طالب العلم أن يستوعب فهمها فمن فهم الأصول ـ فهم الفروع وتكونت لديه الملكة الفقهية.

فالمشكلة التي أصابت علم أصول الفقه أن أهم متونه التي كانت مقررة للدارسين في علم أصول الفقه هو كتاب «جمع الجوامع للسبكي» هذا الكتاب الذي ظل مقرراً لعدة قرون لطلبة جامع الأزهر كان عبارة عن جمع الأقاويل بعبارة لا تفيد قارئاً ولا سامعاً[٢].

ويرجع السبب في ذلك أن السبكي ~ كان في كتابه: جمع الجوامع يختار

(١) المرجع السابق ١٣-١٤٦.

(٢) ينظر كتاب أصول الفقه للشيخ: محمد الحضري بك صفحة ١٠ الطبعة الخامسة ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

انتقاء الألفاظ دون الاعتبار لتكون ملائمة للفهم أولا.

قد يستدرك على مستدرك بوجود المؤلفات الأصولية المعاصرة السهلة العبارة مثل كتاب أصول الفقه لعبدالوهاب خلاف و الوجيز في أصول الفقه للزحيلي[(١)] وزيدان.

فأقول: نعم تلك الكتب سهلة العبارة ـ أحياناً ـ لكن في كثير من الأحيان تستطرد.

وتسهب فهذه الكتب تصلح أن تكون شروحاً لكن أن تكون متوناً فلا أرى صلاحيتها لذلك. ولا يغفل غافل اليوم عن أهمية المتن في العلوم الشرعية فالمتون بتوفر شروطها من حيث دقة العبارة وسهولة فهمها وشمولها كما في كتاب الأصول ـ من علم الأصول ـ لها أهمية كبيرة في رسوخ المعلومة في ذهن الطالب مثل أهمية الجذور لرسوخ الشجر.

إذا تمكن طالب العلم من فهم المتن العلمي فهماً تاماً وليس مجرد الحفظ سوف تكون له مثل الجذور الثابتة التي تبقى راسخة في ذهنه لا يشوبها في المستقبل التراكم المعرفي للمادة أو يطويها النسيان بسبب التباعد الزمني. فكل طالب علم ـ لامحالة ـ يعمر بمرحلة تأسيس العلم فإذا استوعب متنا في علم الأصول ـ مثلاً ـ ككتاب الشيخ العثيمين «الأصول من علم الأصول» فسوف يكون له هذا المتن مثل الجذور للشجرة حتى لو تكاثرت عليه المادة العلمية بعد مرحلة التأسيس فإذا كانت الجذور قوية محكمة المتمثلة في فهم متن أصول الفقه فسوف يستطيع فهم المادة العلمية وتحصلها بسهولة مهما كثرت عليه تفاريع المادة وتشعبها والتي أمثلها بكثرة الأغصان والأوراق، فإذا كانت جذور المبتدأ قوية حملتها وأينع تأسيسه بعد

(١) ينظر على سبيل الاطلاع كتاب الدكتور الزحيلي دار الفكر، دمشق، إعادة الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

حين بثمار علمية فريدة.. وإذا كانت الجذور ضعيفة أو واهية لم يستطع المبتدأ حمل هذه المادة بفهمها واستيعابها بل ربما كان التوسع مشوشا له أكثر لفهم المادة.

الربط بين أصول الفقه والفقه والتنبيه على بعض التطبيقات المخالفة لكي لا يقع الطلبة في لبس من الأصول الفقهية.

لما كان الشيخ العثمين ~ بحرا فياضا في علمي الأصول والفقه نجد السخاء العلمي لايبخل به أبدا على طلابه أو على أهل العلم لكي تكون له خاصية يستأثر بها دونهم.

ومن هنا نجد الشيخ ينبه الطلبة على نوادر المسائل حتى لو كان كتاب الشيخ في علم أصول الفقه مختصرا للمبتدأين لأن زعزعة ثقة الطالب بالأصول الفقهية أولرأي ذهب إليه المؤلف لأحد المدارس الأصولية قد توهن صحة علم أصول الفقه لدى المبتدأ أو قد توهن الثقة العلمية بالمصنف فذاكا لهما أثرا سيئين على نفسية المتعلم. فالشيخ في النص السابق تبنى رأي مدرسة المتكلمين في أن الفاسد والباطل حكمها واحد إلا أنه استثنى من هذا العموم والإطراد أمرين:

الأول: في الإحرام؛ فرّقوا بينهما بأن الفاسد ما وطئ فيه المُحرِم قبل التحلل الأول، والباطل ما ارتد فيه عن الإسلام.

الثاني: في النكاح؛ فرقوا بينهما بأن الفاسد ما اختلف العلماء في فساده كالنكاح بلا ولي، والباطل ما أجمعوا على بطلانه كنكاح المعتدة.

فالتخصيصان السابقان من العموم والإطراد دليلان ـ أيضاً ـ على العقلية الاستقرائية الجامعة بين الفقه والأصول التي وهبها الله للشيخ.

منهجية الشيخ العثمين في الدروس العلمية (منهجية تكوين الملكة الفقهية)

رأينا فيما سبق كيف إن الشيخ ~ قد أبدع في تصنيف متن جامع مانع لعلم

أصول الفقه وسنرى ـ أيضاً ـ إن الشيخ في المسموع (الدروس العلمية) كان مبدعا غاية الإبداع فالشيخ ~ يستحق أن تستقرأ جميع دروسه ليسخرج منها منهجا متكاملا في دور المعلم في تكوين الملكة الفقهية لدي طلابه. والفضل لله ـ أولاً ـ ثم لمحبي الشيخ وأعني بهم هؤلاء الذين أنشأوا موقع الشيخ الإلكتروني ليستفيد منه طلاب العلم فمن فضل الله أن معظم تلك الدروس توافر فيها وضوح الصوت وهذا من فضل الله لأن دروس الشيخ سوف يستفيد الأمة منها ـ بإذن الله ـ عبر الأجيال القادمة.لأن الشيخ ~ كان إماما في التدريس وصنع الملكات العلمية لطلبة العلوم الشرعية فما علينا ـ معشر الباحثين ـ سوى التنقيب والبحث لنخرج للأمة هذا المنهج الفريد ليسفيد منه التربويون في دروسهم.

النموذج التطبيقي «نوازل مفسدات الصيام»:

حين تكلم الشيخ ~ عن مفسدات الصيام كان حديثه عن مفسدات الصيام المعتادة من أكل وشرب.. لم يناقش في تلك المسائل طلابه كثيراً لكن حين تعرض لمفسدات الصيام النازلة نجد الشيخ يطرح المسألة للنقاش ويكثر من أسئلتهم بل أحيانا يلح عليهم ليبدوا رأيهم في المسألة لأن المسألة نازلة لابد فيها من النقاش حتى يتصوروا المسألة ويعرفوا ـ أيضاً ـ وجهة رأي الشيخ في المسألة النازلة.

الطريقة المثلى في التدريس «التفاعل العلمي بين الأستاذ والطالب»:

مما ابتليت به الأمة من حال بعض المدرسين سواء كانوا مدرسين لدراسات العليا أولمراحل البكاريوس مع طلابهم في تدريسهم لهم أطلقت عليهم مجازا مسمى «المعلم الآلي» ولا أظن أنني مبالغاً في تسميتي المجازية لهم لأن المعلم الذي يأتي الفصل الدراسي مثل آلة التسجيل كل همه أن يلقي مادونه من أوراق أو مذكرات غير مكترث لمستوى فهم الطلاب له بأن يسألهم مستفهما عما ألقاه بل قد تجده يصعر وجهه لو وجهت إليه أسئلة من الطلبة.

أهمية منهج الشيخ العثمين في المشاركة بين الأستاذ وطلابه بخاصة المبتدأين منهم:

مما سبق ندرك أهمية المشاركة بين الأستاذ والطلاب على العموم ويتأكد هذا العموم أكثر بحق طلبة العلوم الشرعية المبتدأين أخص منه غير الناطقين بالعربية لأن هؤلاء الطلبة حين يشرح لهم الأستاذ أية مادة فلا بد له بين الهينة والأخرى سؤال طلبته عما ألقاه ليرى مدى استيعابهم وفهمهم ويتجلى أهمية سؤال الطلبة لغير الناطقين بالعربية أكثر أن فهمهم لما يلقيه الأستاذ قد يعوقه من حيث لا يدري كلمة قد تكون بديهية وظاهرة المعنى للناطق بالعربية ولكن لغير الناطقين قد يعوقه المعنى بخاصة إذا كانت الكلمة من صلب الموضوع فلا بد للأستاذ من كثرة السؤال لهم وإلا كان يغرد في واد وهم يغردون في واد آخر. فيجعل المعلم منهج الشيخ ابن العثيمن نصب عينيه في معرفته للحاضرين مدى استيعابهم لدروسه حتى في دروس الحرم المكي التي يحضرها أعداد غفيرة من جنسيات شتى ففيهم الناطقين بالعربية وغيرها. مع ذلك كان الشيخ ~ يكثر من طرح الأسئلة ليعلم مدى استيعابهم ما يلقيه ولا تقتصر أسئلته ~ على المحطين به بل كان يسأل الذين يجلسون في آخر الحلقة كما في تسجيل دروس الشيخ في مفسدات الصوم في الحرم المكي[1].

بيان مزايا المعلم المثالي عند الشيخ العثمين ومقارنتها بالتفاعل التربوي:

تعريف التفاعل التربوي: حدوث اقتناع وتجاوب نفسي بين طرفي العملية التربوية «المعلم والمتعلم» يؤدي إلى استجابة الطرف الثاني المعرفية والسلوكية للطرف الأول وللتأثر به[2].

(١) ينظر موقع الشيخ محمد بن العثمين على الصفحة العنكبتوية ينظر خانة دروس الحرمين ثم الخانة الأولى دروس المسجد الحرام لسنة ١٤٠٧ شريط ١٨ يختار عنوان: استكمال مفسدات الصيام.

(٢) علم النفس الدعوي «دراسات نفسية تربوية للآباء والدعاة والمربين»، د. عبدالعزيز بن محمد النغيمشي الطبعة : الأولى ١٤١٥، دار المسلم للنشر والتوزيع. ص ٢٥٣.

أهميتـــــه:

للتفاعل التربوي أهمية كبيرة في العملية التعليمية، فمن خلاله يكون انتقال الخبرات، ويوجد اكتساب المعلومات، ويظهر أثر التربية والتعليم في المتربي، وتخطو العملية التربوية أسرع مما يتوقع وهو الذي يفرق بين من يتعامل مع إنسان وبين من يتعامل مع أوراق وبنيان. ومعظم شكوى الآباء من أبنائهم، والمعلم من طلابه.. سببها جهل الطرف الأول لمبادئ وأسس التفاعل التربوي وكيفية التعامل الإيجابي مع الآخرين(١).

صفات المعلم القدوة عند الشيخ العثمين:

رسم الشيخ العثمين ~ منهجا متكاملا للمعلم المثالي حين سئل عن توجيه نصيحة لمن يعمل في مجال التدريس فأجاب بقوله: نقول: أهم ما يتعلق بالمعلمين أن يدركوا العلوم التي يعطونها الطلبة إدراكًا جيدًا مستقرًا في نفوسهم، قبل أن يقفوا أمام الطلبة حتى لا يقع الواحد منهم في حيرة عند سؤال التلاميذ له ومناقشتهم إياه، فإن من أعظم المقومات الشخصية لدى الطلبة أن يكون المعلم قويًا في علمه وملاحظته، إن قوة المعلم العلمية في تقويم شخصيته لا تقل عن قوة ملاحظته، إن المعلم إذا لم يكن عنده علم ارتبك عند السؤال فينحط قدره أمام تلاميذه، وإن أجاب بالخطأ فلن يثقوا فيه بعد ذلك، وإن انتهرهم عند السؤال والمناقشة فلن ينسجموا معه.

إذن فلابد للمعلم من إعداد واستعداد وتحمل وصبر، فالمعلم عند توجيه السؤال له إن كان عنده علم راسخ في ذهنه، مستقر في نفسه أجاب بكل سهولة وانطلاق، وإلا فإنه لا يخلو بعد ذلك من هذه الأمور الثلاثة السابقة، وكل ذلك ينافي الآداب التي ينبغي أن يكون المعلم عليها، وإذا كان على المعلم أن يدرك العلم الذي سيلقيه

(١) المرجع السابق ١١.

أمام الطلبة فإن عليه أن يحرص على حسن إلقائه إليهم بأن يسلك أسهل الطرق في إيضاح المعاني، وضرب الأمثال، ومناقشة الطلبة فيما ألقاه عليهم سابقًا، أما أن يأتي يقرأ الشيء عليهم قراءة ولا يدري من فهم ممن لم يفهم، ولا يناقشهم فيما مضي فإن هذه الطريقة عقيمة جدًا لا تثمر ثمرًا، ولا تكون نتيجتها طيبة(١).

نستنتج من النص السابق صفات المعلم القدوة عند الشيخ العثمين:

١ ـ التمكن العلمي في شرح المادة.

٢ ـ المناقشة وسؤال الطلبة فيما طرح عليهم من مادة علمية.

٣ ـ اتباع أسهل الطرق في إيضاح المعاني، وضرب الأمثال.

ربط الجزئيات بالكليات وتقديم الكلي عند التعارض:

العالم الرباني هو الذي يربي تلامذته وطلابه على ربط الجزئيات بالكليات وتقديم الكلي عند التعارض فهذا مسلك هام جدا في التربية العلمية الشرعية لما في الإخلال فيه من مزالق خطيرة قد يقع بها طالب العلم في فهمه لدلالات الخطاب الشرعي وربطه بالأحكام التشريعية العملية وما كان منزلق الخوارج إلا من هذا القبيل، حيث فهموا من قوله تعالى: «إن الحكم إلا لله» الفهم الظاهر دون فقه وربط لهذا الفهم بكليات التشريع من الأحكام العملية التي تعارض هذا الاطراد في الفهم فالأحكام العملية يقينية بينما فهم النصوص اجتهادي يعتريه الخطأ والصواب. ومن هنا حاج حبر الأمة عبدالله بن عباس { الخوارج بالقطعي من الأحكام التشريعية على الفهم العابر لآية: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ (يوسف: ٤٠)(٢).

(١) ينظر مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين جمع وترتيب : فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، الطبعة الأخيرة ١٤١٣هـ، الناشران: جمع وترتيب : فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان صفحة ٤٥٥ الجزء: ٣٦ .

(٢) تنظر قصة التحكيم في تاريخ دمشق لابن عساكر ٤٢:٤٦٥ .

فأخلص مما سبق إلى أهمية غرس في عقول طلبة العلم ربط ما يقرأه أو يفهمه من نصوص شرعية بكليات التشريعية وهذا ما يقرره كل عالم رباني يريد أن يخرج كوكبة من العلماء تأخذ النصوص الشرعية بعضها بركاب البعض لا ليضرب النصوص بعضها بعضا وقد نبه إلى أهمية اعتبار الكليات مع الجزئيات الإمام الشاطبي فقال: «فالحاصل أنه لابد من اعتبار خصوص الجزئيات مع اعتبار كلياتها وبالعكس. وهو منتهى نظر المجتهدين بإطلاق، وإليه ينتهي طلقهم في مرامي الاجتهاد»[1].

وفي هذا المؤتمر الميمون أود تنبيه الباحثين أخص منهم تلامذة الشيخ ~ إلى أهمية البحث والتنقيب في كتب ودروس الشيخ العثمين ليستخرجوا منهما تطبيقات الشيخ في ربط الجزئيات بالكليات لأني أجزم يقينا أن للشيخ العثمين تطبيقات كثيرة تحتاج إلى استقراء بخاصة أن الشيخ قد نبه لذلك من منطوق كلامه ~ فقال أثناء تنبيه لبعض طلبة العلم الذي يكتفون بالكتب عن الشيوخ «أن الذي يأخذ العلم من بطون الكتب علمه ضعيف غالبًا، لا ينبني على قواعد أو أصول، ولذلك نجد الخطأ الكثير من الذي يأخذ العلم من بطون الكتب؛ لأنه ليس له قواعد وأصول يقعد عليها، ويبني عليها الجزئيات التي في الكتاب والسنة نجد بعض الناس يمر بحديث ليس مذكورًا في كتب الحديث المعتمدة من الصحاح والمسانيد، وهذا الطريق يخالف ما في هذه الأصول ـ المعتمدة عند أهل العلم، بل عند الأمة، ثم يأخذ بهذا الحديث ويبني عقيدته عليه، وهذا لاشك أنه خطأ؛ لأن الكتاب والسنة لهما أصول تدور عليها الجزئيات، فلابد أن ترد هذه الجزئيات إلى أصول، بحيث إذا وجدنا في هذه الجزئيات شيئًا مخالفًا لهذه الأصول مخالفة لا يمكن الجمع فيها، فإننا ندع هذه الجزئيات»[2].

(١) انظر: كتاب الموافقات بشرح عبدالله دراز، طبعة دار المعرفة، بيروت، ٣: ١٣. وينظر بتوسع كتابي «الاجتهاد وضوابطه عند الإمام الشاطبي»، دراسة مقارنة لآراء الأصولين.

(٢) نفس المرجع السابق صفحة ١٢٧، الجزء ٢٦.

أهم نتائج البحث والتوصيات

ـ إمامة الشيخ محمد بن العثمين ~ في التأليف والتدريس.

ـ من إمامة الشيخ في التأليف أن كتابه «الأصول من علم الأصول» هو أفضل كتاب في علم أصول الفقه للمبتدأين، لما تضمنه من شمولية المنهج مع قصر العبارة ووضوح المعنى مع إحاطة المتعلم بالجزئيات المخالفة للأصول.

ـ صلاحية كتاب «الأصول من علم الأصول» أن يكون متناً أصولياً للناشئة لأن عبارات الشيخ فيها كانت في منتهى الدقة فلا هي ضيقة تمنع المعنى المراد ولا فضفاضة ليدخل فيها معاني أخرى فالعبارات في الكتاب جامعة مانعة، فالكتاب سوف يكون للناشئة مثل الجذور للشجرة عند التوسع والتبحر في مادة علم أصول الفقه.

ـ بيان صفات المعلم القدوة عند الشيخ محمد بن صالح العثمين.

ـ تحذير الباحث من المعلم الآلي الذي غايته إلقاء المادة العلمية دون طلب المشاركة من تلامذته.

أهم التوصيات:

ـ من أخطر المزالق التعليمية التي نبه إليها الشيخ تلامذته عدم ربط الدارس الجزئيات بالكليات حين التعارض، فينبغي على الباحثين استنطقاق مؤلفات ودروس الشيخ بتدوينها ليسفيد منها طلبة علوم الشريعة اليوم.

ـ من مقاصد التدريس عند الشيخ العثمين تكوين الملكة الفقهية في الدارسين، فينبغي على التربويين استخراجها وتدوينها لتكون قدوة منهجية للمدرسين اليوم.